﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

البعثُ خبرٌ يُحفُّ بـه الاستـدلال ويُـحـيـطُ به البرهان

في هذه الآية الكريمة عَوْدٌ إلى الاستدلال على إمكان البعث، فهو متصل بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ [الأحقاف: 17]، إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 18]، فهو انتقال من الموعظة بمصير أمثالهم من الأمم إلى الاستدلال على إبطال ضلالهم في شركهم، وهو الضَّلال الَّذي جرَّأهم على إحالة البعث[1].

وفيها مواجهةُ المشركين بالدَّليل المنطقيِّ على إمكان البعث، بعد أن ساق إليهم استماع الجنِّ لهذا القرآن الَّذي كذَّبوا به، وسخروا من الرَّسول الَّذي يتلوه عليهم، مع أنَّ الكتاب كتابهم، واللِّسان الَّذي ينطق به لسانهم[2]، فهو انتقالٌ من خبرٍ غيبيٍّ حاضرٍ وقت نزول القرآن، إلى ذكر خبرٍ غيبيٍّ مستقبليٍّ، الأوَّل خبرٌ محضٌ، والثّاني خبرٌ يحفُّ به الاستدلالُ، ويُحيط به البرهان، ويقوّيه كثرةُ البيان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعْىَ﴾: مُضارِعُ (عَيِيَ) مِنْ بابِ رَضِيَ، ومَصْدَرُهُ العيُّ بِكَسْرِ العَيْنِ وهوَ العَجْزُ عَنِ العَمَلِ أو عَنِ الكَلامِ، ومنه العيُّ في الكَلامِ، أيْ عُسْرُ الإبانَةِ، وعَنِ الكِسائيِّ والأصْمَعيِّ: العيُّ خاصٌّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 63.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 297.

بالعَجْزِ في الحيلَةِ والرَّأْيِ. وأمّا الإعْياءُ فَهوَ التَّعَبُ مِنَ المَشْيِ ونَحْوه، وفِعْلُهُ أعْيا[1].

وعيَّ بالأمر عيًّا وعييَ وتعايا واستعيا، وهو عَيّ وعَييَ: عجز عنه، ولم يُطِقْ إحكامه، والعيُّ خلاف البيان، وقد عيَّ في منطقه، ويُقال أيضًا: عيَّ بأمره، وعَييَ؛ إذا لم يهتدِ لوجهه[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، أي: لم يلحقه تعالى مشقَّةٌ في خلق السَّماوات والأرض، ولا تعبٌ، ولا إرهاق، فضلًا عن أنَّه سبحانه لم يلحقه عَجْز.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سَوْقُ الأدلَّة العقليَّة لإثباتِ الحقائق العقديَّة

تُبيِّن الآية الكريمة عن طريقِ الاستفهام الإنكاري من جَهل الكفّار منكري البعث في أنَّ الله تعالى هو الَّذي خلق ما يرون من الأجرام الكبرى حولهم ممّا يرون من السَّماوات الَّتي تُظِلُّهم، والأرض الَّتي تُقِلُّهم؟ وأنَّه تعالى لم يعجز عن خلقهنَّ وإبداعهنَّ، ولم يتعَب فيه؟ أفغاب عنهم أنَّ مَن قدر على خلقها وإيجادها بهذا الإبداع والإتقان؛ يقدر على إعادة الأرواح إلى أجسادها، وبعْثِ النّاس للحساب يوم الدين؟ إنَّه القادرُ على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه يمتلكُ القدرةَ المطلقةَ، الَّتي تُخضع كلَّ شيءٍ لإرادته ومشيئته؛ إذا شاء.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

إغفالُ البراهين الظّاهرة مستنكَرٌ في العقلِ مستقبَحٌ في الذَّوق

الاستفهامُ بالهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، فإنَّ من رأى صنيعَ الله في السَّماوات والأرض، ولم يدعه ذلك إلى الإيمان بالبعث؛ فحقُّه أن يُنكر عليه؛ لفقدِه أصلَ العقلِ في الاستدلال بالبراهين الظّاهرة، والأدلَّة السّافرة عن القدرة على الإحياءِ بعد الإيجاد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عيي).

ومعنى الآية على ذلك "أنَّ مَن قدر على إنشاء ما ذُكِر من السَّماوات والأرض وما فيهما، بلا احتذاء تَقَدَّم ولا استعانة بغيرٍ، ثمَّ الإمساك والقوام على التَّدبير الَّذي دبَّر إلى آخر الدَّهر لا يُحتَمل أن يُعجِزَه شيء"[1].

والإنكار في هذا الاستفهام إنكارُ "توبيخ المشركين على جهلهم وانطماس بصائرهم؛ إذ لم يَعرفوا أنَّ الله تعالى - الَّذي أوجد الكون - قادر على أن يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم، وأورد القرآن ذلك في أسلوب الاستفهام الإنكاريِّ؛ ليكون تأنيبُهم على جهلهم أشدَّ"[2].

تعيينُ المعطوفِ بالواو:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ للعطفِ على مقدَّرٍ يستدعيهِ المقامُ، والرؤيةُ قلبيَّةٌ، أي: ألم يتفكَّروا، ولم يعلموا علمًا جازمًا مُتاخِمًا للمشاهدةِ والعيانِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ابتداءً بقادر على أن يحيي الموتى؟[3].

التَّفكُّرُ يؤدّي إلى العلم، والعلمُ يهيِّئُ للاستدلال

دلالةُ استعمال (لم) في جملة الاستفهام:

(لم) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ نافية جازمة، تدلُّ على رؤية المشركين - عن طريق العِلم الَّذي بلغَهم - أنَّ الله تعالى خلق السَّماوات والأرض، ولم يعيَ بخلقهن، وتلك المقدِّمة تُيَسِّر عليهم - إن تفكَّروا بعَقل موزون - أنَّه تعالى قادرٌ على الإحياء والبعث في الآخرة، وآثر النَّظمُ الكريم النَّفي بـ (لم) دون (لا)؛ لما في الأولى من معنى الجزم والقطع والتَّحقيق ما ليس في (لا).

إعمالُ العقلِ ضرورةٌ في استقامةِ الفِكرِ وسلامة النَّتيجة

دلالةُ استعمالِ فعلِ الرُّؤيةِ دون العلم:

الرُّؤيةُ في فعلِ ﴿يَرَوۡاْ﴾ هي "الرُّؤية القلبيَّة الَّتي بمعنى العلم"[4]،

اختصَّ فعلُ الرُّؤيةِ بالحُجَّةِ البيِّنَةِ المُشاهَدة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 259.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 208.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 89.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 32.

والمعنى: أفلم يَبعثوا بأبصار قلوبهم، فيروا، ويعلموا أنَّ الله الَّذي خلق السَّماوات السَّبع والأرض، فابتدعهُنَّ من غير شيء، بقادر؟[1] وخُصَّ فِعلُ الرُّؤية من بين أفعال العِلم بالاستعمالِ هنا؛ لأنَّ هذا العلم عليه "حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ مُشاهَدة، وهي دلالة خلق السَّماوات والأرض مِن عَدَمٍ، وذلك مِن شأنه أن يَفرض بالعقل إلى أنَّ الله تعالى كامل القدرة على ما هو دون ذلك من إحياء الأموات"[2].

وقد ذكروا أنَّ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ إشكالًا؛ إذ إنَّهم "لم يشاهدوا خلقهما، ولم يروا، فقالَ بَعْضُ العلماء: إنَّ المعنى: أولم يُخْبَروا؟ وقال بعضهم: أولم يعلموا؟ أي: قد أُخبِروا، وعلِموا؛ فذكر هذا؛ لأنَّهم كانوا مُقرّين جميعًا أنَّ الله هو الَّذي خلق السَّماوات والأرض"[3].

وعلى ذلك ففي التَّعبير بفعل الرُّؤية هنا "إيكالُ أمرِ قدرته تعالى - على خلق السَّماوات والأرض - إلى عِلم المخاطَبين؛ لأنَّهم لم يُنكروا ذلك، وإنَّما قَصَد تنبيهَهم إلى ما في نظام خلقهما مِن الدَّقائق والحِكم، ومن جملتها لُزومُ الجزاء على عمل الصّالحات والسَّيِّئات"[4].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَرَوْاْ﴾:

اليقينُ بالمعنويّات يُصيِّرها كالمبصَرات

دلَّ استعمالُ فعلِ المضارعِ المنفي في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾، على إنكار عدم تجديد التَّفكُّر وإدامة النَّظر في الأمور المعنويَّة، الَّتي لا سبيل إلى إدراكها أو الإيمان بها إلّا بالأخبارِ الموثوقة؛ حتّى يصير العِلمُ بها مثل الأشياء الَّتي تُبصَر بالعين، فلا يكون إلى الشَّكِّ فيها سبيل.

تعيينُ مرجع ضمير فعل ﴿يَرَوْاْ﴾:

قوَّةُ الاتِّساق يُعيد الضَّمائرَ إلى أنسب مساق

يعودُ ضمير فاعل فِعْل الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 173.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 63.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 258.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ إلى المشركين المخاطَبين فيما سبق من الآيات في السورة.

دلالةُ ﴿أَنَّ﴾ ووظيفتها:

﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ ناسخة، وهي وما بعدها سدَّت مسدَّ مفعولَي ﴿يَرَوْا۟﴾ وأنَّ واسمها"[1]، وهي تحمل دلالة التَّوكيد.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الألوهيَّة ﴿ٱللَّهَ﴾:

الأنسبُ في مقامِ الاستفهام الإنكاري لإثباتِ البعثِ هو اسم الجلالة

جاء التَّعبير باسم الجلالة في موضوعِ إثبات خلق السَّماوات والأرض؛ لأنَّه الأنسبُ في المقام، وهو العَلَم الدّالُّ على الذات المقدَّسة، المتضمِّن جميع الأسماء الحسنى والصِّفات العلا، فذِكرُ اسم الجلالةِ يورِّث المهابة في صدور المخاطَبين في سياق الاستفهام الإنكاري، فهو العَلَمُ الدّالُّ على القدرة الكاملةِ لخلقِ السَّماوات والأرض، والاستدلال بذلك على قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة للحساب.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

الإشعارُ بخصوصيَّة الخالقيَّة لله تعالى وحده

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هو الذي هيَّأ، وأفسح لِذِكر جملة الصِّلة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بعناصرها الدالَّة على طلاقة القدرة، وذلك لا يتيحه الاسم الصَّريح، كما لو قيل: (أن الله الخالق بقادر)، بالإضافةِ إلى أنَّ الاسم الموصول يوحي بأنَّ سبحانه المعلوم لدى المخاطَبين بأنَّه هو دون سواه خالق السَّماوات والأرض، ففيها إيماءٌ لمعنى الاختصاص، ثم هيَّأتِ الصِّلةُ للعطف عليها ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، فتمَّ للتَّركيب التَّواثُقُ والتَّرابُط، وللدَّلالات الثَّراء والتَّغازُر.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الخلق:

استعمل النَّظمُ الكريم مفردة الخلق في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 193.

الاستدلالُ بالواضحاتِ مهيعُ القرآنِ في إقامة الحجج البيّنات

ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، باعتبارِ ما يتضمَّنه هذا اللَّفظ من معنًى معلوم معهودٍ يطرق ذهنَ كلِّ سامعٍ، أي: "أحدثهنَّ، وأنشأهنَّ؟"[1]، ويُستعمل الخلق في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، فـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: أبدعهما بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، والاستدلالُ بالواضحاتِ مهيعُ القرآنِ لإقامة الحجج على المعاني المُنكرات، ومعلوم أنَّ "خَلْقهما أعظم وأفخم مِن إعادة هذا الشَّخص حيًّا بعد أن صار ميِّتًا، والقادرُ على الأقوى الأكملِ لا بُدَّ وأن يكون قادرًا على الأقلِّ والأضعف"[2].

بديعُ الطِّباقِ بقرن (الأرض) بذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

شمولُ كلِّ ما يراه الإنسانُ من قريبٍ محيطٍ ومستعلٍ بعيد

قَرَن النَّظمُ الكريم ذِكر (الأرض) بذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في نسبة خلقهما إلى الله تعالى، وإن كان خلْقُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أعظمَ، فيُغني عن ذكر خلْق (الأرض)، غير أنَّ احتكاك الكافر بمخلوقات الله تعالى في (الأرض) ونظره في تفاصيلها أدلُّ عنده لقُرْبه ممّا في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإن كان في الواقع أعظم؛ فكان استدلاله بـ (الأرض) وما فيها أقربَ عنده من استدلاله بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها؛ فلذلك ذُكِرت (الأرض) معها، وهذا ما جاء عليها غالبُ الاستعمالِ القرآنيِّ، ففيه بديعُ الطِّباق، الشّامل لكلِّ ما يراه الإنسان من القريب المحيط، والمستعلي من بعيد.

نوع (الواو) ودلالتها:

(الواو) في جملة: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ عاطفةٌ هذه الجملة على جملة: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[3]، وبمجموعهما تتكوَّن صلة ﴿ٱلَّذِي﴾.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 554.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.

دلالةُ النَّفي بأداةِ (لم):

(لم) في قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ نافيةٌ للحوق التَّعب والمشقَّة بالخالقِ ﷻ، مع الجزمِ الأكيد لهذه المعاني.

دلالةُ التَّعبير بمفردة ﴿يَعْىَ﴾:

قدرةُ الله تعالى واجبةٌ لا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿يَعْىَ﴾؛ لنفي التَّعب والمشقَّة عنه ﷻ في خلق السَّماوات والأرض وإيجادها، ونفي الإرهاق أنفَى للعجز من باب أولى، فلو نفى النَّظم الكريم العجز لم يَنفِ عنه التَّعب والإرهاق؛ إذ التَّعبُ والإرهاق دون العجز بمراحل، فقد يُرهق العاملَ عملٌ ما، وإنْ لم يعجز عنه، فهو تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى، وعدَم العَيِّ مجازٌ عن عدم الانقطاع والنَّقص، يعني: أنَّ قدرته واجبة لا تَنقُص أصلًا، ولا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد[1]، ولم يتحيَّر ﷻ في خلقهنَّ[2].

دلالةُ المضارعة في ﴿يَعْىَ﴾:

تدلُّ المضارعة في فعل ﴿يَعْىَ﴾ على دخول تجدُّد القدرةِ الواجبة لله تعالى والاستمرار على الدَّوام، فنفي تجدُّد العَيِّ هو إثبات للقدرةِ المطلقة.

نوعُ (الباء) ودلالتها:

لا ينالُ الله تعالى عيٌّ بسبب شيءٍ

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ سببيَّة، أي: ولم يعي بسبب خلقهن، أو باء الملابسة، وذلك "يفيد انتفاء عجزه عن صنعها، وانتفاءَ عجزه في تدبير مقاديرها ومناسباتها، فكانت باء الملابسة صالحة لتعليق الخلق بالعَيِّ بمعنييه"[3]، وقد دخلت الباء في خبر ﴿أَنَّ﴾ لدخول النَّفي في قوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ في أوَّل الكلام[4].

(1) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 40.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 208.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 14/ 316.

وإذا كان هذا السُّؤال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ "قَصَد تنبيهَهم إلى ما في نظام خلقهما من الدقائق والحكم - ومن جملتها لزوم الجزاء على عمل الصّالحات والسَّيِّئات - تكون تعدية فعل ﴿يَعْىَ﴾ بالباء متعيَّنة"[1].

لطيفة إظهار لفظ (خلقهنّ):

مقامُ ذِكر الخَلق كبير، وممّا يوقِّي حقَّه الإظهارُ والتَّكرارُ

آثر النَّظم الكريم إظهار مفردة الخلق وتكرارها في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، وإن كان يمكن طيّه في ضميره، كأن يقال: (أولم يروا أن الله خلق السماوات والأرض ولم يعي بهنَّ)، غير أنَّ مقام إثبات القدرة ونفْي العَي اقتضى تكرار مادَّة الخلق مرَّة بعد مرَّة؛ تأكيدًا وتقريرًا لنفي العَيِّ برغم عظمة الخلق.

نوعُ (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾:

توكيدُ المعاني توثيقٌ للحقائق

دخلت (الباء) في الخبر ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ لِدخولها "في حيِّز (لم)؛ لأنَّها في معنى (ما) و(ليس)"[2]، وذكرت لتحقيق حُسن العبارة؛ ولِدَعْمِ ثُبوت القدرة وتأكيدِ نَفْي العَيِّ، و"العرب تدخل الباء مع الجحد - أي: النَّفي - مثل قولك: ما أظنُّك بقائم"[3]؟.

دلالةُ التَّعبير بالقدرة في الخبر ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾:

إثباتُ القدرةِ إثباتٌ لباقي الصِّفات الدّالَّة على كمال الفعل

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة القدرة في قوله: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾؛ لشمولِ لفظ القدرة جميع معاني الاستطاعة والقوَّة ومقارباتها، فالقادرُ قويٌّ مستطيعٌ فاعلٌ لما يريد، كما أنَّها تحوي على دلالة "نفي العجزِ عنه، ومُحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنًى، وإن أُطلِق عليه لفظًا، بل حقُّه أن يُقال: قادِرٌ على كذا، ومتى قيل: هو قادر فَعَلى سبيل معنى التَّقييد؛ ولهذا لا أحد غير الله يوصف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (با).
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 116.

بالقدرة مِن وجهٍ إلّا، ويَصحُّ أن يوصف بالعجز من وجهٍ، واللّه تعالى هو الَّذي يَنتفي عنه العجز مِن كلِّ وجه"[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

اجتماعُ الاسميَّة والفعليَّة في صفة القدرة

قُرِئَ الخبر ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ بقراءتين؛ إذ "قرأ يعقوب وحده ﴿يَقۡدِرُ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ بالياء بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ بالباء والألف، قال أبو منصورٍ الأزهري: "مَن قَرَأ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾، فـ (الباء) دخلت في خَبَر ﴿أَنَّ﴾ بدخول ﴿أَوَلَمۡ﴾ في أوَّل الكلام، ولو قلت: ظننت أنَّ زيدًا بقائم، لم يجز، ولو قلت: ما ظننت أنَّ زيدًا بقائم جاز؛ لدخول حرف النَّفي في أوَّله، ودخول ﴿أَنَّ﴾ إنَّما هو توكيد الكلام، فكأنَّه في تقدير: (أليس اللّه بقادر على أن يحيي الموتى)"[2].

وعلى قراءة الجمهور بالباء وصيغة اسم الفاعل: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾، فالباء للتَّوكيد، وتدلُّ صيغة اسم الفاعل على الماضي والحاضر والمستقبل، أي: إنَّ قدرته ﷻ دائمة مستمرَّة على المدى، وعلى قراءة يعقوب: (يَقْدِرُ) يكون خبر ﴿أَنَّ﴾ فعلًا مضارعًا من القدرة على أنَّه فعل مستقبل[3]، والقراءتان اجتمعتا على إثبات القدرة اسمًا ثابتًا، وفعلًا متجدِّدًا، وهذا من بديع الاجتماع.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

المتشابهُ اللَّفظيُّ في القرآن الكريم يوفّي السّياقات مقتضياتها

يقول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ﴾ [يس: 81] وفي الأحْقاف ﴿بِقَٰدِرٍ﴾؛ لأنَّ ما في هَذِه السّورَة خبرُ ﴿أَنَّ﴾، وما في (يس) خبر (لَيْسَ)، فَدخل (الباء) الخَبَرَ، وكانَ القياس

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (قدر).
(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 382، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 355.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 106.

ألّا يدخل في الأحقاف، ولكنَّه شابَهَ (لَيْسَ)؛ لما ترادف النَّفْي، وهوَ قَوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ﴿وَلَمْ يَعْىَ﴾، وفي سورة (يس) نفيٌ واحِد، وأكثر أحكام المُتَشابه في العَرَبيَّة ثَبت من وجهَين قياسًا على باب ما لا ينصَرف وغَيره[1].

بلاغةُ حرفِ الاستعلاء:

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استعلائيَّة استعلاءً معنويًّا، وفي استعمالها هنا اتِّساق جليٌّ مع الخبر المعدَّى بها وهو ﴿بِقَٰدِرٍ﴾؛ إذ القدرة المطلقة المختصة باللّٰه تعالى تعلو، ولا يُعلى عليها، فناسبتها ﴿عَلَىٰٓ﴾ مناسبة دقيقة.

القدرةُ المطلقة مختصَّةٌ باللّٰه تعالى، فهي تَعلو، ولا يُعلى عليها

معنى ﴿أَن﴾ في جملة: ﴿أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مصدريَّة، أي: قادر على إحياء الموتى، ولطيفة إيثارها على المصدر الصَّريح (إحياء الموتى) إتاحتُها صيغة المضارعة في منصوبها ﴿يُحْۦِىَ﴾، وللمضارعة عطاؤها الغزير.

الحرفُ المصدريُّ أنشطُ في الدَّلالة من المصدر الصَّريح

دلالةُ التَّعبير بفعل الإحياء:

الإحياء المقصود في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هو "إعادةُ الرّوح إلى الجسد بعد مفارقتها إيّاه، وإخراجُهم من قبورهم كهيئتهم قَبل وفاتهم"[2]، وفي التَّعبير بالإحياء في جملة: ﴿يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ دليل على القدرة المطلقة، وسَوّق هذا الخبر في سياق الإنشاء تذكير للكفّار بيوم الحساب، الَّذي يقتضيهم إجابةَ داعي اللّٰه تعالى، والإيمان به ﷻ، وبكتابه المجيد، وبرسوله ﷺ.

إحياءُ الموتى دليلٌ عظيم على القدرة المطلقة

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ودلالة الجمع:

(أل) في ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استغراقيَّةٌ، أي: إنَّه تعالى القادر على إحياء

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 167.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 461.

من يشاء من الموتى، وقادر على أن يحيي كلَّ الموتى، وذلك بِرَدِّ أرواحهم في أبدانهم، وإنشارهم للحساب، ويتآزر جمع (موتى) مع (أل) الاستغراقيَّة على بيان طلاقة القدرة الإلهية، مع ما فيه من الوعيدِ بأنَّ جميعَ الموتى سيبعثهم الله تعالى، ويُحاسبهم، ولن يُفلت من ذلك أحد.

الوعيدُ الإلهيُّ بإحياءِ الجميعِ لحسابِهم دون إفلات أحد

دلالةُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ وبلاغةُ استعمالِها:

حرف ﴿بَلَىٰٓ﴾ في الآية الكريمة يقوم مقام جملة جواب كاملة، سيقت بِعَقِب السُّؤال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، والجواب بـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ من الاستئناف البيانيِّ المرتَقَب لهذا السُّؤال الصَّريح.

حـذْفُ حكاية كلام الكفّار بيانٌ لِتَهافُته

هذا في ظاهر السّياق، أمّا في باطنه؛ فـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ "جوابٌ لِمحذوفٍ دلَّ عليه التَّعجيبُ مِن ظنِّهم أنَّ الله تعالى غير قادر على أن يُحيي الموتى، فإنَّ ذلك يتضمَّن حكايةً عنهم: أنَّ الله تعالى لا يُحيي الموتى، فأجيب بقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ تعليمًا للمسلمين، وتلقينًا لِما يُجيبونهم به، وحرف ﴿بَلَىٰٓ﴾ لَمّا كان جوابًا؛ كان قائمًا مقامَ جملةٍ تقديرها، هو قادر على أن يحيي الموتى"[1].

وفي السُّكوت عن حكاية دعواهم بأنَّ الله تعالى لا يحيي الموتى، والاكتفاء بتضمينها في الجواب ﴿بَلَىٰٓ﴾ إهمالٌ لِدعواهم، وبيان لِتَهافُتها، وتعريض بضحالة فكرهم، وعدم جدارة دعواهم بذكرها، فقفز السياق مباشرة إلى الرَّدِّ عليهم بكلمة واحدة: ﴿بَلَىٰٓ﴾.

و﴿بَلَىٰٓ﴾ مقرِّرةٌ للقدرة، لا لرؤيتهم، على وجه عام؛ ليكون كالبرهان على المقصود، كأنَّه تعالى لمّا صدَّر السورة بتحقيق المبدأ؛ أراد ختمها بإثبات المعاد[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 14/ 316.

علَّةُ فصلِ جملة الفاصلة:

جملة الفاصلة الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ "تذييل لجملة ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ لأنَّ هذه تُفيد القدرة على خلق السَّماوات والأرض، وإحياء الموتى، وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السَّماوات والأرض"[1].

التَّراكيبُ القرآنيَّة متآخية متوائقة في تقرير المعاني وتوكيدها

وقد فُصِلت عن جملة ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ لكمال الاتِّصال بينهما؛ لنزولها منها منزلة التَّوكيد من المؤكَّد؛ لأنَّها "تقريرٌ وتأكيد لقدرته تعالى على إحياء الموتى؛ لأنَّ لفظ ﴿بَلَىٰٓ﴾ يُؤتى به في الجواب لإبطال النَّفي السّابق، وتقريرِ نقيضه، أي: بلى إنَّه سبحانه قادر على إحياء الموتى؛ لأنَّه تعالى على كلِّ شيء قدير[2]، وفي جملة الفاصلة أيضًا "تعليلٌ لِما أفادته ﴿بَلَىٰٓ﴾ مِن تعليل الخاصِّ بالعامِّ"[3].

دلالةُ التَّوكيد في جملة الفاصلة:

التَّوكيد أسلوب دعويٌّ يعالج الشَّكَّ

أفادت (إنَّ) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ التَّوكيدَ، اقتضاه إنكارُهم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وفي هذا التَّوكيد توجيهٌ للدُّعاة إلى إبراء الذِّمَّة في الدَّعوة بسوق كلِّ العناصر الَّتي من شأنها انتزاع الشَّكِّ من أنفس المخاطَبين، فهاهو القرآن الحكيم يعالج عقائد الكافرين، مستخدمًا لذلك أساليبهم في التَّوكيد، مع غناه ﷻ عنهم وعن العالمين جميعًا.

فائدةُ إضافة لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيۡءٖ﴾:

توكيدُ العموم الشُّمولي الَّذي لا تخصيص له

أفادَ إضافة لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيۡءٖ﴾، وهو نكرةٌ مبهم الاستغراق والشُّمول؛ تقريرًا لعموم قدرته ﷻ، وقيّوميَّته على فِعل ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ قدرةً وقيّوميَّة تامَّة، فلا يندُّ عنها شيءٌ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 208.
(3) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 40.

دلالةُ تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

كلُّ شيء خاضع لقدرة الله تعالى المطلقة

كلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ نكرةٌ لفظًا؛ إذ هي غير مُعرَّفةٍ بأي أداةِ تعريفٍ، وهي إلى ذلك نكرة مبهمة معنًى، فاجتمع عليها التَّنكيران من جهتيها: اللَّفظيَّة والمعنويَّة، وفي ذلك إيغال في إفادة العموم، وإفادة التَّناهي في استغراق ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عِظَمًا وضآلة وما بينهما على استواء، ممّا يقرِّر بَسْط قدرته تعالى بسطًا لا حدود له، وأنَّ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ خاضع لها.

نكتةُ تقديم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر:

قـرْعُ العقولِ وتنبيهُ الأذهان إلى تدبُّر المعنى المذكور

في تقديم القيد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر ﴿قَدِيرٞ﴾ قَرْعُ العقول، وتنبيهُ الأذهان إلى إنعام النَّظر في دلالة صيغة العموم والاستغراق على قدرته تعالى على التَّحكُّم والتصرُّف في ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ خَلْقًا وتصرُّفًا وإماتةً وإحياء.

والَّذي اقتضى ذلك التَّقديمَ أنَّ السّياق لإثبات عموم قدرته سبحانه وتقريرها في النُّفوس، وفي ذلك تأكيد لعطاء ﴿بَلَىٰٓ﴾ المضطلعة بنفي إنكار الكفّار تلك القدرةَ.

نكتةُ التَّعبير بصيغة ﴿قَدِيرٞ﴾:

إحياءُ الموتى على القدير أمرٌ يسير

يتَّسق مع عطاء التَّعبير بالقدرة هنا صياغتُها في قالب المبالغة (فعيل): ﴿قَدِيرٞ﴾، فلا يوصَف بهذا الوصف على سبيل الحقيقة إلّا الواحد سبحانه، فهو القدير الَّذي لا يعجزه شيء، القدير على إعادة المعدوم، ولو فني الجسد وغيره[1].

لطيفةُ تنكيرِ لفظ ﴿قَدِيرٞ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿قَدِيرٞ﴾؛ للدَّلالة على عموم القدرة الإلهيَّة، وعظمتها،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 461.

واستعلائها على كلِّ شيء، وهيمنتها على كلِّ شيء؛ لأنَّه القادر بذاته، لا بِقدرة مستفادة[1].

براعةُ انتقاء الصّيغة الأنسب في مقامها في مفردة (قادر) و﴿قَدِيرٌ﴾:

النَّظمُ القرآنيُّ يصطفي لكلِّ سياق صيغته الصَّرفيَّة الأنسب له

من دقَّة النَّظم القرآنيِّ المعجز توزيع وصفَي: ﴿قَدِيرٌ﴾ في الفاصلة و(قادر) في وسط الآية؛ وذلك أنَّه لمّا كان السّياق في رَدِّ إنكارهم قدرة الله تعالى على إحياء الله تعالى الموتى؛ جيء في القدرة على إحياء الموتى بصيغة اسم الفاعل: (قادر)، ولمّا كان السياق في إثبات قدرته سبحانه على كلّ شيء؛ جيء بِوصف ﴿قَدِيرٌ﴾ الَّذي هو أكثر دلالة على القدرة مِن وصف (قادر)[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 259.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"